



من المعروف عن النظام السوري، ومنذ أن استولى بعثيو اللجنة العسكرية على السلطة قبل خمسين عاماً من الزمان، وحشيتها المطلقة في مجال الأمن وعالم المخابرات خصوصاً، وتحولت الدولة السورية قلعة استخبارية خالصة بعد أن انتشرت ثقافة الفروع الأمنية، والعناصر المخابراتية يملاسهم الرثة وأخلاقهم المتدينة، وممارساتهم البدائية والبشعية.

فالنظام السوري، ورغم حروب التصفيات المستمرة داخله، والتي أدت إلى إعدام واستئصال رموز مهمة من قياداته خصوصاً بعد عام 1966 عام الانشقاق على القيادة القومية، كان يعتمد على المخابرات اعتماداً كبيراً في تسيير أمور الدولة التي خضعت بالكامل للمنطق الأمني، وللأسلوب القمعي والوحشي، حتى أن بيوت ومقارنات المخابرات، وسجون التعذيب الخاصة كانت موجودة ومتداخلة داخل الأحياء السكنية في دمشق، والمدن السورية الأخرى، وللنظام المجرم خبرة كبيرة في استعمال السراديب والأقبية، وحتى المقابر وتحويلها سجناناً رهيبة كما هي الحال مع مقبرة الشيخ حسن في دمشق، مثلاً، والتي يقع تحتها سجن استخباري رهيب لا يعرف الناس عنه الشيء الكثير.

ولكتاب المقالة خبرة ميدانية متواضعة في دهاليز وسجون المخابرات السورية!

لكوني قد مررت بتجربة اعتقال في تلك السجون في صيف عام 1984 بتهمة مفبركة وملفقة من تهم تلكم الأيام! أتيحت لي خلالها الإطلاع الميداني وال المباشر على ما كان يدور، هذا غير ما سمعته، وعرفته من زملاء، وأصدقاء سوريين

وعراقيين وفلسطينيين عاشوا مأسى ومرارات سجون النظام السوري البشعة.

بمناسبة حديث وادعاءات النظام عن إقدام الجراح البريطاني عباس خان على الانتحار بقميص بيجامته شنقا في زنزانته في مخابرات "كفر سوسة" لا يسعني إلا الاستلقاء على الظهر نتيجة الضحك من هذا التبرير الأعوج!

فزنزين المخابرات السورية لا تسمح لأحد بأن ينام بصورة عادلة نتيجة لحقيقة الشديد وظلمها الرهيب، ولسقفها العالى والخالي من أي شيء يمكن أن يعلق به شيء، فكيف يمكن لمعتقل أن يشنق نفسه؟

عملية الانتحار داخل الزنزانة مستحيلة بالمطلق، وهي أكذوبة لا يمكن تصديقها، أو حتى النطق بها، لقد كنت معتقلًا في مخابرات حلب أولاً في زنزانة انفرادية لا أستطيع الجلوس فيها إلا في وضعية القرفصاء!

كما أنها مليئة وعاصمة بالحشرات، نقلت بعدها للسجن في مخابرات الفرع الخارجي المرقمة "279" في حي أبو رمانة وإدارة العميد وقتذاك أبو مضر وأسمه عدنان الدباغ، وأودعت في زنزانة انفرادية خالية من أي شيء سوى غطاء مهلهل، وممزق، وعامر بالقمل وبحشرات مجهلة لم أتبين طبيعتها بسبب حالة الظلام الدامس داخل الزنزانة العالية السقوف والضيق الجوانب!

حتى المخددة لم يكن مسموماً بها فكنت، أتوسد حذائي لأنام عليه، وكانت أصوات التعذيب تصدح في تلك الليالي الصيفية المرعبة.

شخصياً لم أتعرض لتعذيب جسدي، ولكنني تعرضت لتعذيب نفسي رهيب وخصوصاً حين تطلق في الليل حفلات التعذيب البعض المعتقلين، ويتم الاستماع لأنين وصرخ المعتقلين مرفوقاً ومصحوباً بسماع أغنية أم كلثوم "من أجل عينيك عشقت الهوى" يطلقها الجنادون ليلاً بعد انتهاء حفلات التعذيب!

الذهاب إلى المراحيض كان رحلة حقيقة للجحيم، وحيث يقاد المعتقل لقضاء الحاجة تحت لسع ضرب العصي مع تحديد وقت زمني قدره دقيقة فقط لغير لقضاء الحاجة، وبعكسه ينهال الضرب على الرأس!

حتى حرية استعمال المراحيض كانت ممنوعة، أما عن قوائم الطعام والضيافة فكانت رائعة فعلاً، إنها البطاطا السوداء المتتسخة مع العدس ذي الطبيعة المجهلة، والخبز اليابس... ولا شيء أكثر من ذلك.

أما الجنادون فقد كانوا فتية أغراهم شبه أميين جيء بهم من الأرياف السورية، وكلفهم مهمة إذلال الناس والتعدى عليهم، وما شاهدته من فظائع محدودة لا يعود أن يكون قطرة في بحر الظلم والظلمات الذي يسبح فيه عنة النظام السوري المجرم، وأؤكد هنا ومن المستحيل على أي معتقل التمكن من الانتحار، أو فعل أي شيء، لعدم إمكانية ذلك بالمطلق، ولكن الشيء المؤكد في قضية الطبيب الجراح عباس خان أنه قد تعرض لتعذيب بشع أدى إلى وفاته، وهو أمر يحصل كثيراً، وهو ما حصل مثلاً مع ابن عم الرئيس العراقي جلال طالباني، الدكتور فؤاد الطالباني، الذي اختطف من مطار دمشق لمخابرات القوة الجوية، وكان يرأسها وقتذاك المجرم اللواء علي مملوك مدير المخابرات العامة الحالي وضرب رأسه بحديد الزنزانة مما أدى إلى إصابته بشلل رباعي ولموته بعد سنوات من الاعتقال التعسفي.

لا بدile عن تقديم النظام السوري، وعصابات مخابراته للمحاكم الجنائية الدولية، رغم أنني أفضل خيار خضوع أولئك القتلة لمحكمة وطنية سورية وتاريخية، ستنتهي لا محالة بعد سقوط النظام، ليعرف السوريون والعرب صفحات سوداء ومريرة من تاريخ نظام الجريمة السوري.

المصادر: